

أندريه جيد

لعل الأدب الفرنسى عامة لم يشهد بين رجاله أديباً تلمهفت
الشبيبة المثقفة من الجنسين فى أنحاء العالم المتمدن على مؤلفاته مثل
الكاتب الفذ أندريه جيد . فهذا الأديب الشيخ ، الذى بلغ الآن
الثمانين من عمره ولا يزال شاب القلب والذهن ، يتزعم منذ
عشرات السنين مدرسة (التحرر الأخلاقى) Immoralisme فى
الأدب الفرنسى الحديث ويعالج بمؤلفاته التجديدية العديدة مشاكل
الشباب النفسية والنزعات الجامحة المتقلبة التى تلازمه بصراحة
جريئة وحرية لا حد لها حتى نفر الشيوخ التقليديون من الكاتب
الشيخ واحتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام أدبه .

لقد افتتح جيد ميدان الأدب منذ أكثر من نصف قرن ،
وكانت نزعة التجديدية منذ كتابه الأول تضم نفس الإخلاص
والحرارة والإيمان بوجهة نظره التى تضمها أحدث كتبه عمداً . ذلك
أن جيد بدأ حياته الفكرية راسخ الثقافة ، وكانت العوامل المتضاربة
التي تضافرت فى تكوين تفكيره من القوة وعنف التأثير بحيث
طبعت شخصيته ولون أدبه بذلك الطابع الذى عرف به والذى
لم يتحول عنه رغم امتداد السنين وهجمات المهاجمين .
ولقد كان فن جيد ميداناً خصباً لتحليل النقاد ودراستهم فى .

عشرات الكتب بمختلف اللغات ، وهذه الدراسات إن اختلفت إحداها عن الأخرى من بعض الوجوه فهي تتفق جميعاً في عمق تأثير تفكير جيد وفلسفته على نفسية الجيل الذي خلف الحرب العالمية الأولى ، ذلك الجيل الذي صهرته المحن والكوارث فخرج منها فاتحاً صدره لاستقبال كل رأى ، مستعداً للخروج على كل قديم والتعلق بكل فكر جديد يحطم أغلاله ويحرر نشاطه في الاجتماع والفن والأخلاق على السواء .



في دراسة تحليلية لفن أندريه جيد كتبها الناقد الفرنسي الكبير بنجامان كريميو نراه يبدأ بقوله (إن أول نظرة إلى أندريه جيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب قلق معقد يتركب من عدة شخصيات ، ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر ثم لا تلبث أن ندرك أن فنه صورة منه) .

والواقع أن فن أندريه جيد وفلسفته هما قبل كل شيء صدى لمشكلة نفسه ومأساة حياته . فقد نشأ جيد في أسرة دينية متقشفة ، من أب پروتستانتي وأم كاثوليكية . ورث جيد تربية دينية خالصة ، فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعته أولاً ومع الظروف التي صادفت شبابه ثانياً سبباً قاسياً في أن تجعل من حياته مأساة إنسانية كبرى ، وأن تجعل شخصيته فريسة لحرب شعواء بين جيد المتدين

بولادته وأسرتة وتربيته ، وچيد المتحرر من سيطرة الدين بعقله وإرادته .

عندما بلغ چيد سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الأول من المدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي تحت زعامة فرلين ورامبو وملارميه ، وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيل الثاني الذي من أعضائه فرسيس چيمس وبول كلوديل وبول فور ، فانضم إليهم أندريه چيد ، إذ وجد في الشعر الرمزي الحالم السابج في أجواء الخيال ، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفسها ، سبيلا إلى الانطلاق من عالمه الديني المحدد الآفاق . ولم يكن تأثر چيد بالشعراء الرمزيين قاصراً على فهم فحسب ، بل كان يجد في حياة الكثير منهم مثل فرلين ورامبو مثلاً أعلى لحياة الفنان الذي يريد أن يصل إلى فهم الحياة مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد ، والخروج على كل عرف أخلاقي . على أن رمزية أندريه چيد لم تبلغ في تحكم العاطفة بها ما بلغته رمزية الجيل الأول ، فهو أقل حدة في العاطفة وجموحاً في الخيال ، وهو أمرٌ سخرية وأعمق تفكيراً وأشد رغبة في إدراك حقيقة نفسه وأعظم انطلاقاً وتعلقاً بالحياة المرحية . وفي أول كتبه (دفاتر أندريه والتر) Les cahiers d' André Walter (١٨٩١) نراه يعبر عن ذلك بقوله (يجب النظر إلى الحياة بعين شاملة وطبيعة طامقة

مع الاحتفاظ بالنفس المتيقظة) .

وفي ذلك الوقت أيضاً — وقت شباب جيد — غزت فرنسا أفكار الفيلسوف الألماني (نيتشه) والكاتب الأيرلندي (أوسكار وايلد) فتأثر بهما أندريه جيد متأثراً عظيماً . أخذ عن الأول فكرته عن (السهرمان) وعن الثاني فكرته عن سيادة الفن وحق الفنان في أن يحيا على هامش العادات الأخلاقية المرعية ، والإثنان — جيد ووايلد — يتفقان في إيمانهما بفكرة الجمال عند الاثنينين القدماء .

كذلك تأثر جيد بفكرة الكاتب الفرنسي موريس باريس Barrès عن (تقديس النفس) Le culte du moi وأخذ عنه سحره العالية .

وأخيراً يحىء دور الكاتب الروسى (دوستويفسكى) ، فكما أن نيتشه ووايلد كانا أعظم أثر في جيد الشاب ، كان دوستويفسكى أعظم أثر في جيد الرجل .

من ذلك نرى أن جيد قد تأثر بكل الآراء المتطرفة المعاصرة له ، أليس هو القائل (أن كل ما هو متطرف يؤثر في) ؟ لقد تأثر بالشعراء الرمزيين الفرنسيين ، وبأوسكار وايلد الأيرلندي ، ونيتشه الألماني ، ودوستويفسكى الروسى . لذا كان أدبه كلاسيكى النزعة . على أن جيد ، على رغم كلاسيكيته ، بعيد كل البعد عن

العبودية لمن تأثر بهم ، فشخصيته القوية المستقلة تنبض بها أعماله كلها بشكل قوى مؤثر . ذلك أن طبيعته الثائرة القلقة وجهده الصارخ في التحرر يجعلانه يجرى وراء الثقافة الواسعة التي لا تعرف التمييز بين كاتب وآخر (وأنا - كما يقول - أنتظر دائماً شيئاً أجمله ، أنتظر ضروباً جديدة من الفن وأفكاراً جديدة) . ولقد قادت رغبته الحارة في المعرفة الشاملة إلى دراسة اللغات الأجنبية كي يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الأصلية .



كانت أعمال أندرية جيد الأولى (دفاتر أندرية والتر)
Les cahiers d'Anré Walter (١٨٩١) و (معاهدة نارسيس)
Traité du Narcisse (١٨٩٢) و (رحلة أوريان) Le voyage
d'Urien (١٨٩٣) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد
الفكرية أن أراد بها التحرر منه ، واحدة من حياته الطاهرة المنقشفة .
ففي أول أعماله يقول (الحياة المطلقة ، تلك هي أسى حياة ، سوف
لا أستبدل بها غيرها مطلقاً . لقد ذقت من هذه الحياة ضروباً
كثيرة ، على أن الحياة الحقيقية كانت أقصرها) .

وفي هذه الأعمال الثلاثة الأولى يلج القارئ بين سطورها
ميولاً جامحة خفية يحاول جيد أن يعجم عن التصريح بها .
على أن هذه الحرية التي يبيحها جيد لنفسه دون قيد لا تليث

أن يطفى عليها أحياناً أحساسه الدينى فيقول فى نفس كتابه الأول :
(أتى أتمنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين من عمرى ، وهى السن
التي تنطلق فيها من عقاها الشهوات ، أن أقمها بالعمل المضنى اللذيذ .
لأنى أود فى الوقت الذى يجرى فيه الآخرون وراء ملذاتهم أن
أذوق اللذات الخشنة التي تلازم حياة الصومعة) .

وفى (الأغذية الأرضية) Les nourritures Terrestres (١٨٩٧)
نرى جيد يبلغ انطلاقه الكلى من حيث الدعوة إلى أن
المعرفة لا تأتى عن طريق الفكر بل عن طريق الحس . من ذلك
قوله : (أنك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذى كان لزاماً علينا بذله
لكى نحس أحساساً صادقاً بالحياة ، والآن وقد تحقق ذلك فهو
كالحال مع كل شىء آخر ، عن طريق الحس والشهوة) وكتقوله
أيضاً (لقد تسكنت هنا وهناك كى أستطيع أن ألمس كل من
يتسكع . إن قلبى لينهض بالحنان والحنين إلى كل من لا يعرف
مكان دفته ، وأحب حباً مفرطاً كل من يهيم بالتجوال والتصعلاك)
ثم انظر كيف لا يستطيع الفرار فى هذا الكتاب أيضاً من
أحساسه الدينى حين يقول (كنت أقرأ « عقيدة العلم » ، « فيخت »
فشعرت بأننى سأعود متديناً من جديد) .

وفى قصة (المتحرر من الأخلاق) L'immoraliste (١٩٠٢)
نرى عبقرية جيد وتأثره العميق بالفيلسوف نيتشه قد تعاونا على

إظهار فكرة (التحرر الأخلاقي) حيث نرى بطل القصة «ميشيل»
— وهو شاب مريض — يتقدم نحو الشفاء كلما حرر نفسه من
الأوضاع الأخلاقية التقليدية .

وفي (الباب الضيق) La porte étroite (١٩٠٩) و (إيزابيل)
Isabelle (١٩١١) و (السامفونيا الريفية) La symphonie pastorale
(١٩٢٠) نرى جيد — وخصوصاً في القصة الأولى — يعالج
شخصيات تخالف تماماً في تفكيرها ونزعتها ما نراه من الأفكار
والنزعات في الأعمال الأولى ، ذلك أن الأولى استسلام مطلق لنداء
الحرية الحسية ، أما الثانية فهي استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينية .
فبينما نرى « ميشيل » في قصة (المتحرر من الأخلاق) ذلك التأثير
على نظام الأسرة ، المهاجر لماله وزوجته ، المتمرد على الراحة
والاستقرار ، الراغب في الرحيل إلى أبعد مكان ، الواجد في
الحرية الجسدية والانطلاق الحسي شفاءه العاجل ، نرى من جهة أخرى
« أليسا » ، في قصة (الباب الضيق) ، تلك الفتاة الوادعة المتقشفة التي
تغمرها العاطفة الدينية حتى تدفعها إلى رفض الزواج من ابن عمها
« جيروم » الذي تحبه لكي تقصر نفسها على الاستسلام لإحساساتها
الدينية ، وتقرب من الله الذي تسميه (الأحسن) Le meilleur .
ولا شك أن القصص العبقري هو الذي يرسم لنا بين حين
 وآخر صوراً إنسانية متباينة تختلف كل الاختلاف عن شخصية

راسمها . فعبقريّة القصصى تسمو كلها استطاع التجرد من كل مؤثر ذاتى وهذا هو ما نراه فى قصتى (سيرافيتس سيرافيتا) و (أوجينى جرانديه) للقصصى العظيم بلزاك ، والقصتان تقتربان من حيث تناقض نفسية الشخصيات من قصتى جيد (المتحرر من الأخلاق) و (الباب الضيق) ، على أن الفرق بين بلزاك وجيد من هذه الناحية أن بلزاك فى قصتيه يرسم لنا شخصيات خارجة عن نفسه ، أما جيد فكل شخصية من شخصيات قصصه عبارة عن فكرة متحركة من أفكاره . وفى قصتيه السابقتين نراه يختفى وراء شخصيتى « ميشيل » و « أليسا » ، فشخصية « أليسا » هى صدى حياة جيل الطفل الذى نشأ بين أعطاف الدين فطبع حياته كلها بطابع لم يجد جيد وهو رجل سبيلا إلى التخلص منه ، وشخصية « ميشيل » هى شخصية جيد الشاب المفكر الذى نظر حوله فوجد أن حياة الزهد الماضية قد حرمت كل متع الحياة فلم يجد وسيلة إلى التحرر من تراث ماضيه وتعويض ما فقده من العمر فى أحضان الزهد والحرمان إلا بـإنكار كل قاعدة أخلاقية واستغلال كل دقيقة للتمتع بكل لذة مستطاعة .

وقد يلام جيد ويتهم فنه القصصى بالنقص لأنه اختفى وراء كل شخصياته ولم يرسم لنا صورة إنسانية خارجة عن نفسه ، شأن القصصيين العباقرة . والواقع أن جيد ليس له من النبوغ القصصى نصيب عظيم ، وإنما عبقريته الحققة هى فى تلك الدعوة الحارة إلى

(سيادة الحياة) ، وفي ذلك البحث المتواصل في سبيل فهم نفسه
والنفس الإنسانية، وفي ذلك الاحتمال الباسل لهذا الكفاح العنيف
داخل نفسه بين تربيته وبين تفكيره ، بين العاطفة الدينية وبين
التحرر الأخلاقي ، ثم أخيرا في محاولته الجريئة للتوفيق بينهما كما
سنرى . ذلك كله هو الذي يعطى فن أندريه جيد لونا تجديديا وضاء
ويعطى كتيبه ذيو عاقل أن نصادفه في كتب أعظم الكتاب المعاصرين .
أليس هذا الفن — كما يقول الناقد أندريه بيبي — هو خير تعبير
عن اضطراب العصر الذي نعيش فيه ؟ إن في كل صفحة من
صفحاته تجد النفوس القلقة الجائعة مجالا لا مثيل له لراحته النفسية
وأندريه جيد يكتب — كما يقول — (حتى يجد كل مرافق يصبح فيما بعد
مماثلا لي وأنا في السادسة عشرة من عمري — ولسكنه يكون أكثر
عنى شجاعة وحرية وأعظم كمالا — جوابا لسؤاله المرتجف)
فما هو هذا الجواب ؟

يرى أندريه جيد — ويتفق معه في ذلك مارسيل بروست
وويراند للو — أن الشخصية الإنسانية ماهي إلا وهم زائف ، وأن
الإنسان صنعة الظروف والاحتمالات .

ومهما يكن مقدار ما في هذا الرأي من الحق أو الباطل فقد
كان له الفضل الأول في تجديد القصة الأوروبية لما تضمنته من
تخظيم فكرة (الأخلاق الثابتة) و (النماذج الإنسانية) التي

كانت أساس القصة التحليلية في الأدب الغربي ليقم على أنقاضها
أسس فكرة (اللا شعور) قبل العالم (فرويد) نفسه . كما أن هذا
الرأى قد كشف الأثر العظيم للغرائز الجنسية وعدم توازن العواطف
في حياة الأشخاص ، متأثرا في ذلك بقصص الكاتب الروسى الخالد
دوستويفسكى .

على أن ما يمتاز به أندريه جيد عن مارسيل بروست وبيير اندالو
أنه لا يكتفى بالنظر إلى الأمور نظرة العالم النفسى ، بل إنه
يخرج من دراسته (بقاعدة) يرى من الواجب السير عليها فى الحياة ،
تلك القاعدة هى وجوب أن يسعى الإنسان إلى فهم طبيعته وإدراك
حقيقة نفسه بنفسه ، وما ذلك إلا بالخضوع لكل الدوافع المتنوعة
مهما كانت ، والتذرع بالشجاعة لتحقيق كل ما يحيش فيه من الرغبات
دون اختيار ، أى دون أن يقول الإنسان لنفسه : هذا متفق مع
التقاليد الأخلاقية وهذا مغاير لها ، هذا يمس الدين وهذا
لا يمس . . الخ . يجب أن يكون كل منا — كما يقول جيد — (كطفل
ضال ، وجد دون أن تعرف حالته المدنية ، دون أوراق . . . قذفه
المجهول ، لا يعرف له ماضيا ولا قاعدة يسير عليها ولا سنداً يعينه ،
لا وطن له ولا أجداد) .

إن هذه هى الوسيلة الوحيدة عند جيد لانكشاف حقيقة
نفسنا أمام أعيننا ، وعندئذ نسير على هدى طبيعتنا .

وفي قصته (مزيفو النقود) Les faux-monnayeurs (١٩٢٥)
نرى الفتى « برنار » يخاطب القصصى « إدوار » ويسأله النصيح كيف
يضع قاعدة لحياته ، فيجيبه « إدوار » قائلا : (إن هذه القاعدة تجدها
فى نفسك على أن يكون قصدك السير إلى التقدم . ليس عندى
ما أقوله لك . إنك لا تستطيع أن تستمد هذه النصيحة إلا من
نفسك . فلا تحاول أن تتعلم كيف تعيش إلا بأن تعيش) .
ولكى نعيش — فى نظر جيد — عيشة لا يقيدنا قيد يجب
ألا نتردد عند الحاجة فى الثورة على نظام الأسرة والجرى وراء
أحاساساتنا تقودنا إلى حيث الحقيقة العظمى . فالاستقرار هو الد
أعداء جيد ، إذ رائده أن نكون متأهبين دائما لتغيير جديد فى حالتنا .
وفى كتابه (الأغذية الأرضية) نسمع جيد يخاطب (ناتاناييل)
ملقيا عليه تعاليمه قائلا : (ناتاناييل : أياك أن تستقر فى مكان ،
فمجرد أن تغيرت ظروف هذا المكان وأصبحت موافقة لطبيعتك
أو جعلت أنت نفسك موافقا لظروف المكان ، عندئذ لا تبقى
لك فائدة تُرجى من وجودك ، فيجب أن تهجره . ليس هناك أخطر
عليك من أسرتك ، من غرفتك ، من ماضيك) .

وفى قصة (المتحرر من الأخلاق) نسمع (مينالك) يقول :
(إننى لا أريد أن أتذكر ، فاعتقادتى أن فى هذا منعا لوصول المستقبل
واعتماد على الماضى الذى لم يعد لى فيه حق . إننى بنسيانى الكامل

للأمس أجدد كل ساعة من حياتي . إن كوني كنت سعيداً لا يكفيني ،
لأنني لا أؤمن بالأشياء الميِّتة ، وما كنت عليه و زال عني الآن هو
عندي كأنه لم يكن) .

على أن فكرة جيد عن التحرر المطلق كما رأينا لم تقض على
عاطفته الدينية الدفينة . بل لقد أحدث عنده هذا الإيمان القوى
بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا نتيجة عكسية ، إذ جعله
يترك العنان لإحساسه الديني يطغى عليه بين وقت وآخر دون
أن يحاول كبته ، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف
زاهد . ففي كتابه (الأغذية الأرضية) ، وهو الكتاب الذي يشفجر
فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية ، يقول : (إنك حينما تذهب
لا تستطيع أن تقابل إلا الله) وأيضاً (ناتاناييل : لا تأمل أن
تجد الله إلا في كل مكان) وفي كتابه (الأغذية الجديدة)
Les nouvelles nourritures (١٩٣٥) يقول (يجب أن نفكر
في الله بأقصى ما يمكن من الانتباه واليقظة . . . إنني عندما أبحر
التفكير في الخالق إلى التفكير في المخلوق تنقطع صلة نفسي بالحياة
الخالدة وتفقد حيازتها للمملكة الله)

والآن ، أليس من التناقض مع فكرة التحرر الأخلاقي
والدعوة إلى التمتع بالحياة أن يغمر جيد أحساس أشد المتدينين
إيماناً فيفكر في الله كل يوم — كما يقول — ولا يستطيع له فراقاً ؟

أن جيد يبرر موقفه بفلسفة هي أهم نواحي التجديد في تفكيره .
إنه يفصل بين اللذة plaisir والحب amour أو بعبارة أخرى بين
الجسد corps والنفس âme . لذا نراه يبيح من جهة كل مقتضيات
الجسد ، كما يبيح من جهة أخرى تحقيق كل مقتضيات النفس
في الاتجاه إلى قوة عليا . ولا شك أن رأى جيد هذا لا يتفق مع
أية عقيدة دينية ولكنّه — في صميمه — وحي طابعه الدينى
الذى لم يستطع التخلص منه فأراد التوفيق بين إحساسه الدينى
ومذهبه الفكرى فى التحرر الأخلاقى .

وفى العبارة الآتية يعترف لنا جيد أن هذه الناحية من تفكيره
كانت خلاصاً وتبريراً لما أوقعته فيه مشكلته النفسية . يقول : (أما
فيما يتعلق بى فقد قلت مراراً كيف أن الظروف وما تتجه إليه
طبيعتى كانت تدعونى إلى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة أنه
كانت تؤلمنى فكرة المزج بينهما) ثم يقول : (لقد فصلت أنا أيضاً
بين اللذة والحب ، بل إن هذا الفصل بين الإثنين قد ظهر لى أنه كان
لازماً ، فاللذة أكثر نقاءً plus pur والحب أعظم كمالاً plus parfait)
يرى جيد أن انطلاقنا وخضوعنا لمطالب أجسادنا إنما هو
نوع من الإخلاص والبراءة innocence وأن إجابة الإنسان لنداء
طبيعته وغرائزه التى ولدت معه إنما هو خضوع لإرادة الله . وما
الفرق عنده بين من يحارى ميوله الغريزية وشهواته البريئة وبين

من يكبح بعضها ألا كالفرق بين من (يأكل كل شيء ومن لا يأكل غير الخضروات) .

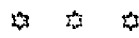
ويقول جيد أيضاً : (ليس في الإنسان شيء غير طاهر)
rien n'est impur en soi ، لذا كان ما تفيض به طبيعة الإنسان من
ميل وشهوات لا يجب في نظره أن يحمل غير معنى الطهر والنقاء
والإخلاص لأنفسنا ، فيجب أن نطيعها دون اختيار (لأن كل
اختيار هو تحديد لحریتنا) .

على أن جيد يشترط لكل عاطفة تحرکنا أن تكون مخصصة لكي نطيعها
ونجيب ندامها . ففي كتابه (إذا لم تمت البذرة) Si le grain ne meurt
(١٩٢٦) نسمعه يقول : (إن لذاتي لا تحجب وراها ففكرة خفية ،
ولذا لا ينبغي أن يتبع هذه اللذات أي شعور بالندم) . فهو يقصد
بذلك أن يقول إن فكرة الحرية والانطلاق إذا استتريت وراها
ففكرة أو غرض معين خرجت عن دائرة البراءة والإخلاص .
ففي ضوء ما ذكرنا نرى أن فكرة أندريه جيد فكرة مزدوجة
مضمونها :

أولاً : الناحية الجسدية الحيوانية في الإنسان ، وهي الناحية
البريئة الساذجة .

ثانياً : الناحية المعنوية ، وهي إما الناحية الخاصة بالإحساس
الديني ، وإما الناحية الشيطانية في الإنسان .

ففكرة جيد هي الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما في الواقع حقيقتان من حقائق الطبيعة الإنسانية — الناحية الجسدية والناحية المعنوية — ثم السمو بهما إلى أقصى ما يمكن من الطهر والنقاء ، وما السبيل إلى ذلك إلا بنز كل مالا أساس له من الحق والصدق ، وفي مقدمة ذلك بالطبع كل ما يرغمنا عليه المجتمع ولا يتفق مع المنطق والإخلاص للنفس . ولقد استخدم جيد في البداية عبقريته كمنافذ في تبرير حقه في الانطلاق والتمتع بالحياة وفي (الحب الذي لا يجرؤ أن يقول اسمه) ، على أنه فيما بعد صرف همه إلى العناية الشاملة بكل تقاليد المجتمع وحقائقه الفارغة وأوهامه لكي يعتمد بعد ذلك إلى تنقيحها أو هدمها من أساسها . فنراه مثلاً يهاجم فكرة الحماية الأدبية ، ويطعن في نظم التربية ، ويفضح مظاهر الرياء في الطبقة البرجوازية ، إلى غير ذلك مما يراه من المفسد الاجتماعية التي تقف حائلاً بين الإنسان وبين حريته التامة .



كانت « فردية » جيد سبباً في أن يبقى حتى الثامنة والخمسين من عمره بعيداً كل البعد عن الاهتمام بالشئون العامة أو الإيمان بعقيدة سياسية أو اجتماعية على اعتبار أن الإصغاء لأفكار الغير يحد أو يغير من أفكار الإنسان الخاصة التي يجب أن تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي . وأندريه جيد في عزله السياسية والاجتماعية

كان يخالف تماماً كثيراً من الكتاب الفرنسيين المعاصرين مثل
أنا تول فرانس وشارل موراس وموريس باريس وشارل بييجوى
ورومان رولان وغيرهم، من اختلفت مشاربهم في السياسة والاجتماع .
على أن جيد بعد رحلة إلى الكونغو وأواسط أفريقيا خرج
مرة واحدة من دائرته الخاصة إلى دائرة المجتمع الإنساني بأكمله،
يفكر في ظروف الحياة فيه بعين تفيض بالرحمة الواسعة والحنان
العظيم ، حتى إن المرء ليحس بأن جيد قد نسي نفسه ولم يعد يفكر
إلا في الآخرين .

وفي كتابيه (رحلة إلى الكونغو) Voyage au Congo
(١٩٢٧) و (العودة من تشاد) Le retour du Tchad (١٩٢٩) نرى
جيد يدافع عن الأمم المستعمرة ويطالب بحق هذه الأمم
في التقدم المطرد في جميع شؤون حياتها ، مسفها كل استعمار ينتهك
حرمة هذه الحقوق المقدسة .

ولكن هل بقي جيد عند هذا الحد من الاعتدال في تفكيره
وهو الذي من دأبه السير إلى أقصى حدود التطرف ؟ لا . إذ لم يكد
ينقضى وقت يسير حتى رأينا جيد يعلن إيمانه بالاشتراكية
التي اعترف بأنه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها . ولا شك
أن اعتناق جيد للاشتراكية مخالفة تامة لأسس تفكيره السابق ،
لأن جيد ، الفردى ، قد أصبح يؤمن بنظام يقيد مصلحة الفرد في

سبيل مصلحة المجموع ، وجيد التأثير على أى نظام من نظم التربية على اعتبار أن التربية تقييد وتحديد قد أصبح يؤمن بالمثل العليا الاشتراكية ، وجيد الذى كان ألد عدو للعقيدة الثابتة dogme قد أصبح إيمانه بالاشتراكية تسليم منه بالنظريات الماركسية كمنظرية (التفسير المادى للتاريخ) مثلاً وغيرها . بيد أننا لا نستطيع أن نغفل أيضاً أن فى الاشتراكية تتحقق معظم أفكار جيد وآماله ، ففيها شروء نهائى من ماضيه الدينى الذى أثقله زمانا طويلاً ، وفيها التخلص من عبودية نظام الأسرة الذى طالما حاربناه وناضلنا فى سبيل القضاء عليه ، وفيها أمل جديد فى الوصول إلى ما يسميه جيد (مملكة الله) Le royaume de Dieu أى قتل الجرانب الخبيثة فى الإنسان بالتخلص من كل أنانية والتحرر من كل تفكير ذاتى ، وهو يرى فيها أيضاً الشفقة الزائدة والتفكير الجدى فى نحو الشقاء الإنسانى .

ولقد أحدث انضواء جيد تحت راية الاشتراكية ضجة كبيرة ، وابتهاجا من رجال الفكر اليساريين ، إذ اعتبروا انضمامه إلى صفوفهم فوزاً مبدئياً ونصراً عظيماً لعقيدتهم ، وذلك نظراً لشهرته فى عالم الفكر والأدب .

وسافر جيد إلى روسيا عام ١٩٣٦ بعد إعلان عقيدته الجديدة وعاد منها ليكتب كتابه (عودة من روسيا) Retour de l'U.R.S.S.

الذى امتدح فيه النظام السوفييتى فيما يختص بحياة الطفولة والشبيبة ونظم تربيتها ، ولكنه انتقد كثيرا من جوانب الحياة فى روسيا ووسائل تطبيق المبادئ الاشتراكية فيها . وسرعان ما خابت فيه آمال من هلكوا وطبلوا عند انضوائه للعقيدة الجديدة وعادوا إلى مهاجمته مهاجمة مريرة ، متهمين إياه بأنه لم يستطع بعد أن يتحرر تحررا كليا من « فرديته » السابقة و « بورجوازيته » . فأجاب على هذه الانتقادات بكتاب ثان هو (عودة إلى العودة من روسيا ، Retour à mon retour de L'U.R.S.S.) يرد فيه على ما وجه إليه من نقد ، ويؤكد أنه على عقيدته الجديدة راسخ الإيمان ، وأن ما وجهه إلى النظام فى روسيا من نقد لا ينفى إيمانه بالاشتراكية ، وأن غرضه الوحيد من هذا النقد هو — كشيئته دائما — السعى إلى الكمال المطلق والاحتفاظ باستقلال رأيه .



لعل مظاهر القلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار التى صاحبت حياة جيد ومؤلفاته عشرات السنين ، والتى كانت موضع نقد الناقدين ، هى أعظم ما يرفعه (كإنسان) ، لأنها نتيجة تغلغل عاطفة الحرية فى دمه إلى حد قل أن يكون له نظير ، فظل طول حياته (حذيقا من التردد) — كما سماه أكبر أتباعه الكاتب الفرنسى جاك ريفيير — لا يهدأ له بال ، يدرس الحياة بنواحيها

الفكرية والحسية ، يسافر إلى أقصى البلاد . كل ذلك لكي يصل إلى الحقيقة المنشودة التي يسعى وراءها ، وبرغم عبء ماضيه الديني الثقيل فقد استطاع أن يحطم أغلاله وينطلق باحثاً منقياً .

إننا حين نحكم على أندريه جيد يجب أن ننظر إلى مجموع شخصيته وتفكيره وأهدافه التحريرية البعيدة المرمى التي تنبض بها عشرات أعماله الخالدة لقد علمنا جيد كيف ننتصر على الخجل المقيت والرهبة البغيضة التي لا معنى لها ... علمنا كيف نكشف دخائل نفوسنا ولا نتركها في الظلام الدامس لا نعرف كنهنها كأن ليس لنا بها صلة ... علمنا كيف نسلط عليها ضوءاً وهاجاً نستمد منه من صميم إرادتنا وشجاعتنا ... علمنا كيف نصرح بكل ما يجيش في خفايا قلوبنا من النزعات الصارخة ... علمنا كيف ومتى نعرف حقيقة نفوسنا ، ليس بالاستسلام لغرائزنا الحيوانية كما يتهمه أعداؤه ظلماً ، بل بأن نسائر طبيعتنا مهما كانت بإخلاص عظيم ، سواء ما كان منها خاصاً بالناحية الحيوية أو بالناحية الزوحية وأن نكون دائماً على أهبة لمواجهة الحياة المتغيرة ومجاراتها على الدوام في قالب جديد .

